Al-Turath Al-Adabi
ISSN (P): 3005-7426, ISSN (E): 3005-7434
Vol: 01, Issue: 01 (Jan-June 2023)
https://alturath.numl.edu.pk/index.php/alturath/index
DOI: https://doi.org/10.52015/al-turathal-adabi.v1i01.12
Received: Feb 28, 2023 | Accepted: June 12, 2023 | Available Online: June 30, 2023

التداولية في نهج البردة لأحمد شوقي

The Pragmatics in the Poem "Nahj Ul Burda" written by Ahmad Shauqi

أ د. محمد دياب غزاوي

أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية، وكيل كلية الآداب لشؤون التعليم والطلاب سابقًا

جامعة الفيوم، مصر، وعضو اتحاد كتاب مصر

Prof.Dr. Mohamed Diab Mohamed Ghazzawi

Head Department of Arabic, Former Vice Dean of the Faculty of Arts for Education and Student Affairs at Fayoum University, Egypt. Member of the Egyptian Writers Union.

Abstract

This research paper comprehends the pragmatics in the poem "Nahj ul Burda" written by Ahmad Shauqi. This study applies a pragmatic lens to Ahmad Shauqi's panegyric "Nahj ul Burda," exploring how the poet utilizes contextual and deliberative mechanisms to construct meaning and achieve rhetorical impact. The research situates the poem within the rich tradition of Arabic praise poetry, specifically investigating its relationship with its famed predecessor, Imam al-Busiri's "Al-Burda." This research adopts a qualitative descriptive-analytical approach. It examines the poem through key pragmatic frameworks, including context, background knowledge, and speech act theory, to analyze the internal structure of the text and its connection to communicative elements. The analysis reveals that "Nahj ul Burda" is deeply intertextual with al-Busiri's original,

Al-Turath Al-Adabi, Department of Arabic, NUML, Islamabad, **This work is** licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License (CC BY-NC 4.0).

drawing inspiration and sharing numerous characteristics without contradiction. The findings indicate that Shauqi's pragmatic use of language results in a poem with a profound message, fresh stylistic expression, a genuine portrayal of reality, and a powerful, enduring intellectual impact. The study highlights the efficacy of pragmatic analysis in uncovering the depth of modern Arabic poetry and its dialogic relationship with classical texts. It suggests that further research could apply similar pragmatic models to other neo-classical Arabic poems to better understand the evolution of stylistic and rhetorical strategies in modern literary contexts.

Keywords: Pragmatics, Ahmad Shauqi, Nahj ul Burda, Intertextuality, Arabic Poetry, Speech Act Theory, Linguistics.

مقدمة:

التداولية Pragmatics[١] هي أحدث فروع العلوم اللغوية؛ بل هي أشمل فروع علم النص، وهي تُعْنَى بدراسة التواصل اللغوي، وبخاصة العلاقات بين الجمل والسياقات والأحوال التي استعملت اللغة فيها؛ ومن ثم فإنها تتطرق إلى اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية، كما أنها تختص بتحليل الموقف الكلامي، أي أن البراجماتية تدرس العلاقة بين النص والسياق، أي تهتم بالترابط بين بنية النص الداخلية واعتبارات الموقف الاتصالي الذي يتبصل به على نحو متهجي Autonomus Syntax.

ومن ثم فإن التداولية تدرس ما يلي:

كيفية تفسير الأقوال المستعملة أو اعتمادها على المعرفة بالعالم الواقعي المحيط.

كيفية فهم المتحدثين للأحداث الكلامية speech acts.

كيفية تأثر تراكيب الجمل بالعلاقة بين المتحدث والسامع[٢].

ويحدد زيتسلاف – نقلا عن فوندرليش – شروط الاستعمال البراجماتي والقدرات الخاصة التي يجب أن تكون لدى كل متواصل وفق مايلى:

يجب أن يكون لديه مفهوم عن الواقع وعن العوالم الممكنة التي يمكن استنباطها منه حتى يحصر ما يريد أن يتواصل حوله.

يجب أن ينشئ اتصالا ويستطيع حصره.

يجب أن يستطيع الإدراك وأن يمتلك ذاكرة وقدرة على التوقع بالنسبة لسياق الكلام وسياق الموقف.

يجب أن يستطيع الخوض في إدراك علاقات اجتماعية تجاه الآخرين.

يجب أن يستطيع إعادة إنشاء شروط اجتماعية.

يجب أن يستطيع التواصل عبر وسيط معين.

يجب أن ينطق أبنية صوتية مناسبة(٣).

وفيما يلي نتطرق إلى أهم الآليات التداولية في قصيدة نهج البردة، وهي: السياق، المعرفة الخلفية، نظرية الأفعال الكلامية.

١/٢- السياق Context

السياق Context لفظ يتكون من سابقة (Con) تعني المشاركة أي وجود أشياء مشتركة في توضيح النص With The Text، وهي فكرة تتضمن أمورا أخرى تحيط بالنص والبيئة المحيطة التي يمكن وصفها بأنها الجسر بين النص والحال(٤).

والسياق هو الظروف والملابسات المحيطة بالنص من مؤلف ومنتج أو الزمان أو المكان أو السياق الثقافي العام (أي منظومة الثقافة التي تشكل النص)؛ حيث إن هذه الظروف وتلكم الملابسات تجعل من السهل التنبؤ والقدرة على التأويل والتفسير والتحليل، وتقاس درجة اتساق النص وتماسكه وانسجامه وفقا للسياق العام الذي يظهر فيه ويُنتج من خلاله.

فالعلاقة –إذن– تلازمية بين النص والسياق؛ فوجود أحدهما يستلزم وجود الآخر، فلا نص بلا سياق يحتضنه، ولا سياق بلا نص يتوقف عليه، ومن ثمة "ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه Situation Of Occurrence تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات

Strategies والتوقعات Expections والمعارف Knowledge، وهذه البيئة الشائعة تسمى سياق الموقف Situation Of Context [٥].

ولذلك يصرح فيرث Firth بأن" المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة، فمعظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى وإن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها "[٦].

ويرى براون ويول أن محلل الخطاب يجب عليه أن يأخذ السياق بعين الاعتبار الذي يظهر فيه الخطاب من (المتكلم – الكاتب – المستمع – القارئ – الزمان – المكان ...)؛ لأنه يؤدي دورا فاعلا في تأويل الخطاب[٧].

معنى ذلك أننا في السياق ننطلق من مستوى بنية النص الانغلاقية إلى آفاق ظروف إنتاج الخطاب من متكلم ومتلق ورسالة وزمان ومكان، مما يؤكد أن السياق الخارجي هو العتبة التي تقود إلى البهو الداخلي للنص وردهاته المختلفة.

وقد حدد هايمس Hymes خصائص السياق التي لها علاقة بتحديد نوع الأحداث الكلامية على النحو التالي : الباث/ المرسل، المتلقي/ المرسل إليه، المستمعون، الموضوع، المقام/ الظرف الزماني والمكاني، والعلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين، القناة، النظام/ الشفرة المستعملة، صيغة الرسالة، الحدث، الطابع، الغرض، المفتاح... وهذه الخصائص لا يمكن أن تكون مجتمعة في خطاب واحد ... وبقدر ما يعرف المحلل أكثر عن خصائص السياق بقدر ما يكون قادرا على التنبؤ بما يحتمل أن يقال[٨].

وهذه الخصائص تسهل على الباحث عملية تحليل النصوص المختلفة؛ لأن" النص المنجز لا يتم تحليله لغويا إلا عن طريق التفاعل بين المبدع والمتلقي، أي بين جسد النص ومدلولاته الحديثة الزمانية والمكانية، إنه باختصار شديد كائن حي، يشكل مع القراءة الواعية والتحليل

الهادف الذي يجعل للسياق والموقف اللغوي دورا أساسيا عند التحليل، هذا السياق هو الذي يحدد مكونات النص بل ويوجدها [٩].

خصائص السياق في نهج البردة

من الصعوبة بمكان قراءة النص وتأويله ومن ثم فهمه وتفسيره بمعزل عن سياقاته المتنوعة وملابساته المتباينة، وقد " أكد فيرث Firth على أن كل تحليل لغوي لابد أن يعتمد على ما يسمى بظروف المقام أو السياق Context Of Situation، وسياق الحال عنده يشمل الكلام المنطوق، وشخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع إن وجدوا ... هذه العناصر هي التي يتكون منها الموقف الكلامي[١٠].

خصائص السياق في البردة كما حددها هايمس Hymes :

المرسل/ الباث[١١]

المرسل أو منتج الخطاب هو صاحب القصيدة، أمير الشعراء أحمد شوقي(ت:١٩٣٢)، وهو من رواد مدرسة الإحياء والبعث أو الاتجاه الكلاسيكي ... وقد جاءت هذه القصيدة ضمن الجزء الأول من ديوانه الذي يحوي شعره في السياسة والتاريخ والاجتماع ... والقصيدة من مديحه النبوي الذي برع فيه عبر أكثر من قصيدة؛ فله أيضا قصيدتان في ذكرى المولد، وأرجوزة في السيرة النبوية مدرجة ضمن منظومته دول العرب وتاريخ الإسلام.

المتلقي/ المرسل إليه

والمرسل إليه هو متلقي الرسالة والمستهدف من إنشاء النص، أي أنه الطرف الآخر الذي يوجه إليه المرسل خطابه، وهو حاضر في ذهن شوقي، سواء أكان حضورا عينيا أم ذهنيا ... والمخاطب في هذه القصيدة ليس شخصا بعينه إنما شخوص متعددة، حيث نلاحظ أكثر من مخاطب عبر مقاطع القصيدة ومحاورها ووحداتها، إن شوقي يتوجه بخطابه إذن لأكثر من متلق، فتارة يتوجه إلى محبوبته (يا ناعس الطرف)، وتارة إلى نفسه يحذرها من الدنيا الخادعة

الغرارة (يا نفس دنياك تخفي كل مبكية)، وتارة إلى مخاطب متوهم – أي متلق للقصيدة – (يا لائمي في هواه)، وتارات للمستشرقين الذين ينبذون غزوات الرسول ﷺ وجهاده (يا جاهلين على، قالوا غزوت) ...إلخ.

إن الخطابات المتنوعة هذه – من وجهة نظري– ليست إلا قشرة خارجية لبُّها ولحاها أفراد الأمة الإسلامية والعربية – بمن فيهم الشاعر – الذين نسوا أو تناسوا ماضيهم المشرق ورضوا بواقع مؤلم، عساهم يهبون من نومتهم ويستيقظون من غفوتهم إلى أمل معقود ومستقبل منشود.

المستمعون

وهم مستمعون آخرون للنص يسهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي، ويتم إدراجهم ضمن عنصر التلقي والمخاطب.

الموضوع / الرسالة

والموضوع هو محور الحديث وأساس التخاطب، والفن لا يمكن ولا ينبغي أن يكون فارغا من المضمون والرؤى خاليا من الأفكار والتصورات، حتى وإن كان ضمن ما يسمى بمدرسة الفن للفن، فإنه يكون –أيضا– محملا برؤى صاحبه ومثقلا بقضايا فنه، وإشكاليات خطابه.

ومن ثم فنهج البردة كغيرها من القصائد يجب أن تحمل رسالة، وتؤدي دورا فاعلا من وجهة نظر صاحبها ... وشوقي في جل فنه مهموم بواقع أمته وقضايا مجتمعه، ويكفي أن نشير إلى قصائده الوطنية والسياسية لندرك صدق ما نرنو إليه ونومئ نحوه.

ونهج البردة – كما أشرنا – وإن بدت متنوعة الموضوعات، متعددة المقاطع، متباينة المحاور، فإنها بقيت متماسكة متلاحمة متآخذة؛ إذ إن الموضوعات الجزئية والمحاور الصغرى تصب في الموضوع الرئيس ألا وهو المديح النبوي.

وبالرغم من أن القصيدة في المديح النبوي، فإن الشاعر ينطلق فيها من الماضي المجيد ممثلا في الرسول ﷺ إلى وصف حاضر الأمة الإسلامية المتهرئ وواقع الأمة العربية المزق؛ سعيا للحصول على مستقبل مشرق، والشاعر في ذلك يتوسل بالرسول ﷺ، رمزا للبعث، وأيقونة للخلاص، وتيمة للنجاة، وأنشودة للإرادة.

المقام / الظرف

ويقصد به السياق الزماني والمكاني للحدث، فالزمان في أوائل القرن العشرين، أما المكان فهو موطن الشاعر مصر.

القناة

ويقصد بالقناة الواسطة والكيفية التي تم من خلالها التواصل بين الأطراف المشاركة، وقد حدث التواصل بين أطراف الخطاب من مرسل ومستقبل عن طريق الكتابة الإبداعية شعرا، بواسطة قصيدة عمودية كلاسيكية، تتخذ من المعارضة إطارا وسبيلا ومن المحاكاة نهجا وطريقا.

النظام / الشفرة المستعملة

ويقصد بالشفرة أسلوب اللغة أو اللهجة التي تم التواصل بواسطتها، وقد توسل الشاعر في خطابه باللغة، بوصفها أداة الاتصال ووسيلة التخاطب، وهي —كما رأينا – لغة وسطى تجمع بين رصانة الشعر القديم وجزالته، ووضوح الشعر المحدث وسهولته ... وقد جاءت لغته محملة بالمعاني، ومُتَبَّلَة بالأفكار، ومثقلة بالرؤى والتصورات، ومفعمة بالروحانية والترنيمات ... كما لم يفت الشاعر — في الوقت ذاته — جعلها أكثر إيحائية من خلال المجازات المختلفة، والأخيلة المتنوعة، والصور المتباينة.

شكل النص / صيغة الرسالة

يمكن توصيف هذه القصيدة في إطار الشعر الوصفي، الذي يجمع بين الوعظ والإرشاد من جهة والجدل والحجاج من جهة ثانية، مما جعلها تخاطب العاطفة والوجدان والعقل والفكر معا؛ أي أنها تجمع بين وظيفتي الإقناع والإمتاع.

المفتاح

وتتضمن هذه الخصيصة التقويم، فهل كان النص مثيرا للجدل، موضوعيا، هل كان موعظة؟ ولا شك أن هذه القصيدة تثير في نفس قائلها ومتلقيها مشاعر الحب والإكبار تجاه الرسول ﷺ، كما أنها تجادل وتحاجج بعض المتنطعين من المستشرقين الذين لا يألون جهدا في النيل من النبي ﷺ ومواقفه وبخاصة غزواته وجهاده.

"وبقدر ما يعرف المحلل أكثر عن خصائص السياق بقدر ما يحتمل أن يكون قادرا على التنبؤ بما يحتمل أن يقال(١٢)؛ وذلك لأن هذه الخصائص تسهل على الباحث عملية تحليل النصوص المختلفة؛ إذ إنه كلما توفر للمتلقي معلومات عن هذه الأشياء كانت لديه الفرصة الأكبر من أجل الفهم والتأويل والمقاربة، ومن ثم فك شفرة النص وما قد يغمض عليه من دلالات وما يغيم من معان.

٢/٢- المعرفة الخلفية Back Ground Knowledg

لم تعد القراءة مجرد عملية آلية بسيطة بوصفها تحويلا لرموز اللغة الخطية إلى ألفاظ منطوقة، بل غدت عبئا، وشكلت ثقلا، ينوء به، ولا يقدر عليه إلا أصحاب المواهب العالية والقدرات الخاصة، فالقارئ – من ثمة – ليس مجرد مستهلك للنص، بل أضحى منتجا مبدعا خلاقا، ربما لا يقل إبداعه وتألقه عن مؤلف النص الأصلي، ولم لا؟ وهو الذي يبعث فيه الروح، وينفث فيه الحياة، ويفتح مغاليقه، ويوضح مبهمه، ويفك رمزه وشفرته.

القراءة إذن ليست سياحة مجانية، أو نزهة خلوية في عالم النص، بقدر ما هي رشح للجبين، يحتاج إلى مشقة وتعب وأرق ونصب، ولذلك أضحت مجابهة النص ومواجهته عملية

إنتاجية إبداعية تحتاج إلى زاد وفير من المعارف المتراكمة والثقافات المتعددة، التي تساعد القارئ في رحلته وتجواله في ذلك العالم الزاخر.

إن النص الجيد لا يعطي للقارئ لؤلؤته المستحيلة وقبسة ناره وهالة نوره لأول وهلة، إنما لابد من الكد والند والمحاورة والمحاولة؛ وفقا لاستجابة القارئ ومقدرته على الغوص في أعماقه، والتنقيب فى خباياه، والكشف عن دروبه.

ولذلك فإن تحليل النص أو معرفة مدى انسجامه والحكم عليه بالنصية يعتمد على ما تراكم لدى القائم على تأويل النص أو متلقيه من معارف سابقة، تجمعت لديه قارئا قادرا على الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص والتجارب السابقة التي قرأها أو عالجها عبر فترات زمنية سابقة.

والمعرفة الخلفية أداة من أدوات الانسجام النصي، وهي ما يمتلكه المتلقي من تجارب وأدوات وثقافات ومعارف ... والتي تعمل على مساعدته في إدراك العالم من حوله، ومن ذلك معرفتنا بالشاعر والظروف والأحداث التي تدور حول النص، والنصوص الغائبة فيها، بوصفها وسيلة تشاركية، ومن ثم تؤسس معرفة مشتركة بين الباث من جهة والمتلقي من جهة ثانية.

مما يعني أن المستمع أو القارئ حينما يواجه خطابا ما لا يواجهه وهو خاوي الوفاض، فارغ الذهن، وإنما يستعين بمعرفته الخلفية، والتي يقصد بها كما يقول براون ويول" ثقافة المتلقي وأدواته المعرفية وما لديه من قدرة على التصور الذهني"(١٣).

فالقارئ من ثم " لا يذهب إلى عالم النص وهو عبارة عن صفحة بيضاء، وإنما تكون له معلومات مختزنة في ذاكرته تسمح له بالتعميم اعتمادا على مبدأ النظير، كما تسمح له بإعادة الرأي في قياسه وتصحيح بعض أجزائه"(١٤).

ومن ثم فإن "معرفة المرء بالعالم تساعده في عمليات استنتاج مفاهيم النص، وتوقع المعلومات التي لم ترد فيه بشكل صريح، فبإمكانه إعادة وصف النص وتلخيصه وملء فراغاته

انطلاقا من معرفته بالعالم"[١٥]. ولعل ذلك يتصل "بفضاء عمل الذهن Mental Workspace الذي يمكن من خلاله تنشيط المفاهيم والعلاقات لتشكل ما يسمى بالمخزون النشط Active Storage"[١٦]، ولهذا فإن القارئ يعتمد في ذلك على استحضار مكونات نصه من خلال خلفياته الثقافية ومعارفه الإدراكية المتنوعة.

ولأن القارئ النموذجي واسع الاطلاع، عميق الثقافة، فليس من المعقول أن يستخدم كل هذه الثقافة في أي نص يقاربه ويقوم بتحليله، ومن ثم فإنه يستدعي من ذاكرته من تلكم الثقافات وهذي المعارف والخبرات ما يناسب كل مدونة ويلائم كل خطاب. ولهذا تحدث عملية انتقاء Postdiction من هذه المعلومات المختزنة في الذاكرة على نحو يؤدي إلى استرجاع كل ما هو مهم واستبعاد ما ليس مهما لفهم النص وعدم إقحامه معلومات زائدة لا تخدم عملية فهمه وإدراكه من أجل لي عنقه وتحميله ما لا يحتمل[١٧].

فالمعرفة الخلفية إذن تتحكم في النص، كما تسهم بشكل كبير في تقريب المسافة بين القارئ من جهة والنص من جهة ثانية حتى تتسنى للقارئ القدرة على التأويل والفهم والتحليل، ومن ثمة التلقي الجيد للنص وإدراك الرسالة وغرض التخاطب.

ويساعد القارئ في تنظيم هذه العملية المعرفية ما يراه من إشارات وتلميحات يومئ بها تارة ويصرح بها تارات من خلال ما يسميه النقاد بالتناصIntertextuality، أي مجموع النصوص الغائبة التي تتعالق مع نص ما والتي يتم امتصاصها بطريقة أو بأخرى.

إن التناص يعبر عن ثقافة واسعة وفضاء لا متناه من القراءات، والمبدع إذا ما أراد التعبير عن تجربة ما – وهو مثقل بهموم نفسه وقضايا واقعه ومجتمعه – بحث حينئذ عن صياغة فنية تحمل هذه التجربة على جناحيها، ومن هنا يشرع في التنقيب في محفورات ذاكرته ومخزون وعيه؛ علَّه يجد ما يروي غلته ويسد رمقه ... وحينها يجد تراثا ممتد الجذور، يضرب بجرانه في أطناب التاريخ بكل تمظهراته، فيتوقف عنده، يمتح منه بقدر ما يلبي احتياجاته النفسية وحالته الشعورية وصياغته الفنية في غير ما ذوبان فيه، سواء بالتوارد الساذج أو الاستهلاك المقيت.

إن القارئ مطالب قبل إقدامه على مواجهة النص وقبل مغامرة اقتحامه لفعل القراءة أن يكون واعيا مدركا، وعليه أن يتساءل ما هي النصوص الكامنة في هذا النص التي شكلته وعملت على إيجاده وتخلُّقه؟ إذ إن مثل هذه النصوص تكون بمثابة خلفية معرفية مشتركة بين القارئ والمبدع، مما يؤدي إلى عملية تأويل ناجعة، بعيدا عن سوء فهم أعلى قد يؤدي إلى لي عنق النص وتحميله ما لا يحتمل، أو سوء فهم أدنى قد يؤدي إلى عملية فهم مبتسرة ناقصة غير وافية، فتغدو القراءة — من ثم – ضربا من الخوض في تيه لا مخرج منه وبِيْد لا معالم لها.

وبناء على ذلك يحق لنا التساؤل: ما هي النصوص التي امتصتها هذه القصيدة ؟ ولماذا هذه النصوص دون غيرها ؟ وهل هي منسجمة مع مقصد الشاعر ومضمون الرسالة أم لا ؟ هل تعامل الشاعر مع هذه النصوص تعاملا عفويا ساذجا أم لجأ إلى الاختيار ؟ هل حوَّر الشاعر في تلكم النصوص أم أخذها كما هي ؟ هل استعمل الشاعر تناص الموافقة والمطابقة أم تناص المخالفة والمعارضة ؟ كيف وظف الشاعر هذه النصرص عبر تضاريس نصه ومنحنيات خطابه ؟ كيف استخدم الشاعر هذه النصوص واستثمرها ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها مشروعة وجديرة بالتوقف عندها والتريث إزاءها، لكنها تحتاج إلى دراسة خاصة ومبحث مستقل، ومن ثم سنكتفي بالإشارة السريعة حتى لا يتضخم البحث ويخرج عن إطاره وخطته، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وقارئ " **نهج البردة** " عليه أن يكون واعيا بأمور منها أنه أمام نص يتخذ من المعارضة وسيلة ومن المحاكاة آلية وسبيلا لإبراز هدفه وتحقيق غايته، وإن نظرة عجلى إلى القصيدة لتظهر هذا الأمر جليا لا لبس فيه ولا مواربة.

ومن صور التناص نذكر ما يلي:

١/٢/٢– التناص الأدبي

ولعل عنوان القصيدة يطرح بوضوح إطار **التناص الأدبي** من خلال **تقنية المعارضة** التي اتخذها الشاعر منصة ينطلق منها في نصه" **نهج البردة**"، وإن شوقي لا يخفي إعجابه واحتذاءه وتقليده ومحاكاته للبوصيري ومعارضته إياه، وقد اتضح ذلك من خلال الشكل العام والإطار الخارجي إضافة إلى الرؤى والمضامين ... فمن ناحية الشكل الخارجي تمثل ذلك في الوزن والقافية والروي، فكلا القصيدتين من بحر البسيط وعلى روي الميم المكسورة ... وكذلك الامر في بناء القصيدة؛ حيث تبع شوقي البوصيري، بداية من المقدمة الغزلية، مرورا بالحكمة، إلى مدح الرسول ﷺ، مع الاختلاف في التفاصيل الجزئية الطفيفة، أي أن شوقي نهج طريقة البوصري وسلك السبيل نفسه ملتزما بالموضوعات ذاتها، أضف إلى ذلك اعترافه في ثنايا مدحته بهذه المعارضة، كما في قوله:

المادِحونَ وأربابُ الهوى تَبَعٌ لِصَاحِبِ البُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي القِدَمِ

أما من حيث التناص في البردة فقد انتثر تارة وانتشر تارات عبر أبياته، سواء أكان تناصا لفظيا أم معنويا، ومن ذلك حديث شوقي عن المعجزات والبشريات التي واكبت مولد المصطفى ﷺ، وإن مزج شوقي فيها بين الواقع التاريخي والخيال الشعري.

ومن صور التناص بين شوقي والبوصيري نذكر هذه الأمثلة:

يقول شوقي في المطلع:

ريمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ

حيث تأثر شوقي بالبوصيري؛ إذ امتاح قوله في البردة :

لولاَ الهوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعَاً عَلَى طَلَلٍ ولا أَرِقْتَ لِذِكرِ البَانِ والعَلَمِ

ومن التأثر قول شوقي:

سَرى فَصادَفَ جُرحاً دامِياً فَأَسا وَرُبَّ فَضلٍ عَلى العُشّاقِ لِلحُلُمِ

متناصا مع البوصيري في قوله:

نَعَمْ سَرَى طَيفُ مَنْ أهوَى فَأَرَّقَنِي والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالأَلَمِ

ومنه أيضا قول شوقي:

لَقَد أَنَلتُكَ أُذناً غَيرَ واعِيَةٍ وَرُبَّ مُنتَصِتٍ وَالقَلبُ في صَمَمِ

متناصا مع البوصيري في قوله:

مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إنَّ المُحِبّ عَنْ العُذَّالِ في صَمَمِ

ومنه قول شوقي:

فاقَ البُدورَ وَفاقَ الأَنبِياءَ فَكَم بِالخُلقِ وَالخَلقِ مِن حُسنٍ وَمِن عِظَمِ

ففيه يتأثر بالبوصري لفظا ومعنى في قوله:

فاقَ النَّبِيّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ وَلَمْ يُدانُوهُ في عِلْمٍ وَلا كَرَمِ

ومن التناص أيضا قول شوقي:

البَدرُ دونَكَ في حُسنٍ وَفي شَرَفٍ وَالبَحرُ دونَكَ في خَيرٍ وَفي كَرَمِ

حيث أخذه من قول البوصري في بردته:

كالزَّهْرِ في تَرَفٍ والبَدْرِ في شَرَفٍ والبَحْر في كَرَمٍ والدَّهْرِ في هِمَمِ

ومنه أيضا قول شوقي:

ربعَت لَها شَرَفُ الإيوانِ فَانصَدَعَت مِن صَدمَةِ الحَقِّ لا مِن صَدمَةِ القُدُمِ

متأثرا بالبوصري في قوله:

وباتَ إيوانُ كِسْرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ

ومنه أيضا قول شوقي:

وَظَلَّلَتهُ فَصارَت تَستَظِلُّ بِهِ غَمامَةٌ جَذَبَتها خيرَةُ الدِيَمِ

متناصا مع البوصري في قوله:

مِثْلَ الغَمَامَة أنَّى سَارَ سائِرَةٌ تَقِيهِ حَرَّ وطِيسٍ لِلْهَجِيرِ حَمي

ومن تناصات المقاطع قول شوقي في إسراء الرسول ﷺ ومعراجه:

أَسرى بِكَ اللهُ لَيلاً إِذ مَلائِكُهُ وَالرُسلُ في المَسجِدِ الأَقصى عَلى قَدَمِ

لَمّا خَطَرتَ بِهِ اِلتَفّوا بِسَيِّدِهِم كَالشُهبِ بِالبَدرِ أَو كَالجُندِ بِالعَلَمِ

حَتّى بَلَغتَ سَماءً لا يُطارُ لَها عَلى جَناحٍ وَلا يُسعى عَلى قَدَمِ

وَقيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِندَ رُتبَتِهِ وَيا مُحَمَّدُ هَذا العَرشُ فَاِستَلِمِ

حيث تأثر فيه بقول البوصيري في الشأن ذاته:

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلَى حَرَمٍ كما سَرَى البَدْرُ في داجٍ مِنَ الظُّلَمِ

وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ

وَقَدَّمتْكَ جَميعُ الأنبياءِ بِها والرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

ومن تناص الختام قول شوقي متضرعا إلى الله مستشفعا بالرسول ﷺ:

فَالطُف لِأَجلِ رَسولِ العالَمينَ بِنا وَلا تَزِد قَومَهُ خَسفاً وَلا تُسِمِ

ممتاحا فيه قول البوصري في بردته:

وَالْطُفْ بِعَبْدِكَ في الدَّارِيْنِ إنَّ لَهُ صَبْرا مَتى تَدْعُهُ الأهوالُ يَنْهَزِمِ

نخلص مما تقدم إلى أن شوقي قد امتص جل ما قيل في نص البردة، كما أننا نلحظ أيضا أن جل هذه التناصات وغيرها إنما هي من قبيل تناص الموافقة والمطابقة لا المخالفة والمغايرة؛ فقد سار شوقي وراء البوصيري في بردته يحدوه حب غامر ووجدان فياض لأعظم الرسل سيدنا محمد ﷺ، وإن صاغ ذلك كله في أسلوب جديد وثوب قشيب وبرد موشاة وديباجة رائقة،

تعبر عن واقع عصره وقضايا مجتمعه، وتشي في الوقت ذاته بتمثل المعني ووضوح الدلالة ونضج الفكرة دونما ذوبان أو تلاشٍ.

ولم ينس شوقي أيضا التأثر والامتياح من نص البردة الأول، وأقصد بذلك بردة كعب بن زهير، ومن ذلك قول شوقي:

إن جَلَّ ذَنبي عَنِ الغُفرانِ لي أَمَلٌ في اللهِ يَجعَلُني في خَيرِ مُعتَصِمِ

ففي ذلك إشارة واضحة إلى قول كعب في بردته[١٨]:

أُنبِئتُ أَنَّ رَسولَ اللهِ أَوعَدَني وَالعَفوُ عِندَ رَسولِ اللهِ مَأمولُ

كما ألمح شوقي إلى زهير بن أبي سلمى في قوله:

يُزري قَريضي زُهَيراً حينَ أَمدَحُهُ وَلا يُقاسُ إِلى جودي لَدى هَرِمِ

حيث فيه إيماءة إلى مديح زهير لهرم بن سنان، كما في معلقته [١٩]:

يَميناً لَنِعمَ السَيِّدانِ وُجِدتُما عَلى كُلِّ حالٍ مِن سَحيلٍ وَمُبرَمِ

٢/٢/٢- التناص الديني

ازدهر هذا النوع من التناص بصورة كبيرة في نهج البردة ؛ نظرا لأن موضوعها الرئيس وتيمتها الأساسية هي المديح النبوي، إضافة إلى كونها معارضة لبردة الإمام البوصيري، ومن ثم فقد حتم هذا وذيا مثل هذا النوع من التناص، ناهيك عن الثقافة الدينية المتباينة التي يتمتع بها شوقي والتي أشرب إياها منذ صغره، ومن ثم كان له منها نصيب وافر وقدح معلى، الأمر الذي جعله يمتاح من سلسالها، ويغترف من معينها على مستوى الألفاظ والتراكيب والعبارات، أو المعاني والأفكار والتصورات.

ومن ذلك قول شوقي:

ريمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ

ففي هذا المطلع إشارة إلى قوله تعالى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ[20]

ومنها أيضا قول شوقي:

وَنودِيَ اِقرَأ تَعالى اللَهُ قائِلُها لَم تَتَّصِل قَبلَ مَن قيلَت لَهُ بِفَمِ

إذ يتناص شوقي مع قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ[21]﴾

والأمر كذلك في حديث شوقي عن قصة إسراء النبي ﷺ ومعراجه:

أَسرى بِكَ اللَهُ لَيلاً إِذ مَلائِكُهُ وَالرُسلُ في المَسجِدِ الأَقصى عَلى قَدَمِ

ففي هذا البيت مع ما يليه في ذلكم المقطع تناص واضح وامتياح جلي مع قول الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[22]﴾

ومن التناص الخفي قول شوقي عن كفار قريش بعد رجوعهم خائبين لعدم ظفرهم بالرسولﷺ يوم الهجرة:

فَأَدبَروا وَوُجوهُ الأَرضِ تَلعَنُهُم كَباطِلٍ مِن جَلالِ الحَقِّ مُنهَزِمِ

حيث تأثر فيه شوقي بقوله تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [23].

وكذلك من التناص القرآني قول شوقي مخبرا عن يُتْمِ المصطفى ﷺ مادحا ذلك فيه:

ذُكِرتَ بِاليُتمِ في القُرآنِ تَكرِمَةً وَقيمَةُ اللُؤلُؤِ المكنونِ في اليُتُمِ

متناصا في ذلك مع قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى[24]﴾

ومن التناص الإشاري قول شوقي عن سيدنا عيسى إبان مقارنته به:

أَخوكَ عيسى دَعا مَيتاً فَقامَ لَهُ وَأَنتَ أَحيَيتَ أَجيالاً مِنَ الرِمَمِ

في هذا البيت إحالة وإشارة إلى عديد من الآيات التي تتناول معجزة إحياء الموتى لسيدنا عيسى عليه السلام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(25)

وما هذه الأمثلة إلا غيض من فيض، وكلها نماذج على تناص الموافقة والمطابقة لا المخالفة والمناقضة ، وهذا دأب المعارضات وديدن المحاكاة.

٢/٣/- التاريخ الإسلامي

إن القصيدة تفهق بالأخبار والآثار المأخوذة من التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية، وإن نظرة عجلى عبر مساحاتها ومنحنياتها لتكشف هذا الأمر بجلاء ... ومن ذلك الحديث عن الراهب بحيرا وتعرفه على الرسول ﷺ من خلال علاماته وسيماه ، وكذلك بشائر مولده ﷺ ومعجزاته، من تصدع الإيوان وخمود النيران، وكذلك الحديث عن قصة غار حراء ومطاردة كفار قريش له، ونسج العنكبوت ... إضافة إلى الحديث عن جهاده وغزواته، حتى وفاته ﷺ، ثم التطرق إلى موقف كل من سيدنا عمر ابن الخطاب وسيدنا أبي بكر من ذلك الأمر الجلل ... وكذلك التطرق إلى جهاد الصحابة والخلفاء...والكلام عن حضارة المسلمين في بغداد على يد الرشيد والمأمون والمعتصم ... وغير ذلك مما يطول فيه الكلام وتسود فيه الصفحات ولا يحتاج إلى مزيد من التعليق لظهوره وذيوعه.

٢/٢/٤- تاريخ الحضارات الأخرى

وبالإضافة إلى تمثل شوقي للتاريخ الإسلامي وحضارته وتشربه إياهما، فإن ثمَّ العديد من الإشارات التاريخية عن الحضارات الأخرى كحضارة الرومان واليونان والفرس والروم والفراعنة المصريين ... وكل ذلك في مقام الحديث عن المقارنة بين حضارة الإسلام كما أسسها النبي ﷺ ورسخها الصحابة والخلفاء من بعده وبين الحضارات الوضعية الأخرى؛ ليبين الفارق ويوضح الاختلاف ... ومن ذلك قوله عن حضارة المصريين القديمة ممثلة في أعظم ملوكها وأهم معالمها:

وإترُك رَعمَسيسَ إنَّ المُلكَ مَظهَرُهُ في نَهضَةِ العَدلِ لا في نَهضَةِ الهَرَمِ

ولعل ما سبق يشي بثقافة متنوعة واستبحار واسع في شتى مناحي المعرفة، وقد اتضح ذلك من خلال تلك النصوص الغائبة — المقدسة منها وغيرها – التي تداخلت بشدة وتعالقت بقوة مع هذه القصيدة، وإن كان بعضها يتسم بالحضور والانكشاف، والبعض الآخر بالكمون والاستتار، لكنه في الوقت ذاته لا يلبث أن يظهر وينجلي عند أدنى استدعاء له.

ويبقى للقارئ دور كبير في إظهار مثل هذه النصوص الغائبة الحاضرة، الظاهرة المستترة، وذلك في سبيل إعادة تشكيل النص المعطى الذي يتكشف وينجلي ويبرز نتيجة لقراءة واعية منتجة، تعمل على وصل النص الحاضن بالنصوص الأم التي صنعت بنوته وأسهمت في إنتاجه وإبداعه وتميزه.

المراجع والحواشي

(١) يرجع مفهوم **براجماتية** إلى **موريس** Morris؛ حيث فرق بين قواعد نحوية وقواعد دلالية وقواعد براجماتية . ويقر موريس أنه يوجد في كل القواعد أي في كل النصـــوص مكون براجماتي ينتج عن أن القواعد تطبق في إطار ظروف محددة ... ينظر: مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، ص٨٦.

(٢) علم اللغة النصي ، ١/ ٤٣

(٣) مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص.

(٤) context and texte : ، language، Halliday، M.A.K،Ruqaia Hasan، oxford ،aspects and language in asocial semiotics perspective : university press،1989 ، p:5 ... ومن الجدير بالذكر أن السياق يقسم إلى أربعة أقسام هي : السياق اللغوي، السياق العاطفي، السياق الثقافي، سياق الموقف. ينظر: نحو النص، ص٤٠ . أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط٦، ٢٠٠٦، ص٧٠ .

(٥) النص والخطاب والإجراء، ص٩١.

(٦) علم الدلالة ، ص٦٨-٦٩.

(٧) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص٥٢.

(٨) نفسه، ص ٥٣.

(٩) نحو النص، ص٤٧.

(١٠) علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٩٢، ص٣٣٧-٣٤١.

(١١) أدخل جلنتس مصطلح الباث Emittent لوصف الشخص الذي ينطلق منه النص، أي المؤلف والناشر والمكلف بأمر وما أشبه . ينظر: التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ص ٢٥.

(١٢) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ٥٣.

(١٣) تحليل الخطاب، ص٢٧٩.

(١٤) محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٩٠، ص٤٢.

(١٥) علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ص١٩٢.

(١٦) نحو آجرومية للنص الشعري، ص ٢٢٩.

(١٧) ومن المفاهيم المستخدمة لوصف كيفية تخزين المعرفة في الذاكرة بشكل منظم" مفهوم الإطارات المعرفيةFrames ... حيث إن" استعمال المعلومات يعد صورة من صور الربط الإجرائي Procedural Attachment " بين المعلومات التي يمنحها النص والمعلومات المخزونة في ذاكرة المتلقي، وعليه يتم التغلب على الفجوات التي توجد في النص" ينظر: النص والخطاب والإجراء، ص٢٤٢.

(١٨) ينظر: كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، حققه وشرحه وقدم له: الأستاذ علي فاعور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧، ص٦٥.

(١٩) أبو عبد الله الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت، ص ١٤٠.

(20) التوبة/٣٦

(21) العلق/١-٤.

(22) الإسراء : ١

(23) الأنبياء/١٨

(24) الضحى/٦

(25) المائدة/١١٠

References in Roman Script:

1. Yarjaʿu mafhūmu *Brāgmātiyyah* ilā *Morris*؛ ḥaythu farraqa bayna qawāʿid naḥwiyyah wa-qawāʿid dalāliyya wa-qawāʿid brāgmātiyyah. Wa-yaqurru *Morris* annahu yūjadu fī kulli qawāʿid

ayy fī kulli nuṣūṣ mukawwin brāgmātī yantuju ʿan anna al-qawāʿida tuṭbaqu fī iṭāri ẓurūfin muḥaddadah … Yunẓar: *Madkhal ilā ʿIlm al-Naṣṣ, Mushkilāt Bināʾ al-Naṣṣ*, p. 86.

2. *ʿIlm al-Lughah al-Naṣṣī*, 1/43.
3. *Madkhal ilā ʿIlm al-Naṣṣ, Mushkilāt Bināʾ al-Naṣṣ.*
4. Ruqaia Hasan, M.A.K. Halliday, *Language, Context and Text: Aspects and Language in a Social Semiotic Perspective*, Oxford University Press, 1989, p. 5. Wa-min al-jadīr bi-l-dhikr anna al-siyāqa yuqassamu ilā arbaʿati aqsām hiya: al-siyāq al-lughawī, al-siyāq al-ʿāṭifī, al-siyāq al-thaqāfī, siyāq al-mawqif. Yunẓar: *Nahw al-Naṣṣ*, p. 40; Aḥmad Mukhtār ʿUmar, *ʿIlm al-Dalālah*, ʿĀlam al-Kutub, 6th ed., 2006, p. 70.
5. *Al-Naṣṣ wa-l-Khiṭāb wa-l-Ijrāʾ*, p. 91.
6. *ʿIlm al-Dalālah*, pp. 68–69.
7. *Lisāniyyāt al-Naṣṣ, Madkhal ilā Insijām al-Khiṭāb*, p. 52.
8. Nafsuhu, p. 53.
9. *Nahw al-Naṣṣ*, p. 47.
10. *ʿIlm al-Lughah, Muqaddimah li-l-Qāriʾ al-ʿArabī*, Maḥmūd al-Saʿrān, Dār al-Fikr al-ʿArabī, 2nd ed., 1992, pp. 337–341.
11. Adkhala *Glents* muṣṭalaḥa al-bāth (*Emittent*) li-waṣfi al-shakhṣi allaḏī yanṭaliqu minhu al-naṣṣ, ayy al-muʾallif wa-l-nāshir wa-l-mukallaf bi-amr wa-mā ashbaha. Yunẓar: *al-Taḥlīl al-Lughawī li-l-Naṣṣ, Madkhal ilā al-Mafāhīm al-Asāsiyyah wa-l-Manāhij*, p. 25.
12. *Lisāniyyāt al-Naṣṣ, Madkhal ilā Insijām al-Khiṭāb*, p. 53.
13. *Taḥlīl al-Khiṭāb*, p. 279.
14. Muḥammad Miftāḥ, *Dīnāmiyyat al-Naṣṣ, Tanzīr wa-Injāz*, al-Markaz al-Thaqāfī al-ʿArabī, Beirut, Lebanon – al-Dār al-Bayḍāʾ, Morocco, 2nd ed., 1990, p. 42.
15. *ʿIlm Lughah al-Naṣṣ, al-Naẓariyyah wa-l-Taṭbīq*, p. 192.
16. *Nahw Ājrūmiyyah li-l-Naṣṣ al-Shiʿrī*, p. 229.
17. Wa-mina al-mafāhīm al-mustakhdamah li-waṣfi kayfiyyati takhzīn al-maʿrifah fī al-dhākirah bi-shaklin munaẓẓam *mafhum al-iṭārāt (Frames) al-maʿrifiyyah* … ḥaythu inna istiʿmāla al-maʿlūmāt yaʿuddu ṣūrah min ṣuwar al-rabṭ al-ijrāʾī (*Procedural Attachment*) bayna al-maʿlūmāti allatī yamnḥuhā al-naṣṣ wa-al-maʿlūmāti al-makhzūnah fī dhākirati al-mutalaqqī, wa-ʿalayhi yatimmu al-taghallub ʿalā al-fajawāti allatī tūjadu fī al-naṣṣ. Yunẓar: *al-Naṣṣ wa-l-Khiṭāb wa-l-Ijrāʾ*, p. 242.

18. Yunẓar: Kaʿb ibn Zuhayr, *Dīwān Kaʿb ibn Zuhayr*, taḥqīq wa-sharḥ wa-taqdīm: al-Ustād ʿAlī Fāʿūr, Manšūrāt Muḥammad ʿAlī Bayḍūn, Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, Beirut, Lebanon, 1st ed., 1997, p. 65.
19. Abū ʿAbd Allāh al-Ḥusayn al-Zawzani, *Sharḥ al-Muʿallaqāt al-Sabʿ*, Manšūrāt Dār Maktabat al-Ḥayāh, Beirut, Lebanon, n.d., p. 140.
20. *al-Tawbah* / 36.
21. *al-ʿAlaq* / 1–4.
22. *al-Isrāʾ*: 1.
23. *al-Anbiyāʾ* / 18.
24. *al-Ḍuḥā* / 6.
25. *al-Māʾidah* / 110.